لبنان للعرب: لا تُعيدوا ارتكاب خطيئة العراق

محمد قواص
كاتب سياسي لبناني

سقط لبنان داخل دائرة النفوذ الإيراني بعد هزيمة الولايات المتحدة في هذا البلد في ثمانينات القرن الماضي. أجْلتْ قوات "المارينز" قوات منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان عام 1982، وخيّل أن أمرا كهذا سينهي أيضا "العصر السوري" في لبنان لصالح عصر أميركي أوحى به الانتصار الساحق الذي حققته القوات الإسرائيلية في اجتياح ذلك العام. كانت واشنطن تحت إدارة الرئيس رونالد ريغان تسعى لبسط نفوذها وتأكيد تفوقها في الشرق الأوسط، مستفيدة من مشاهد الهزيمة الفلسطينية. وعلى هذا أوفت بوعودها للرئيس اللبناني الأسبق أمين الجميّل وقدمت لنظامه دعما عسكريا مباشرا، بحيث باتت البوارج الأميركية تدك مواقع خصوم الجميّل، وما يمثلونه من خصومة للعصر الأميركي، دون هوادة. لا تهم هنا التفاصيل. النتيجة أن ريغان استدعى قواته وعاد بها إلى بلادهم بعد أيام على تعرض مقر المارينز في بيروت لتفجيرات 1983 كان واضحا أن إيران تقف وراءه.

انهزمت الولايات المتحدة. الوصف عسكري بامتياز. وجاءت قوات الوصاية السورية تستعيدُ النفوذ في لبنان مستعينة بما قدمته طهران للحاكم في دمشق من نيران أبعدت ريغان وعسكره عن شواطئ لبنان. انهزمت الولايات المتحدة، وراحت توفّر رعاية دولية لوصاية دمشق على أمور بيروت. وفي تلك المعادلة ما يؤكد أن بلدا كلبنان، في حجمه ومساحاته وقواه، لا يملك إلا أن يكون جزءا من وصاية ما، وأن فنتازيا السيادة والاستقلال هي مفهوم حالم وغير واقعي، وإن حدث فهو مصطنع قد تجري داخله مراعاة ما هو شكلي طالما أن هذا الشكل لا يتصادم مع أجندات الأوصياء.

يقع لبنان جغرافياً في منطقة لا يمكن إلا أن يتأثر داخلها بالديناميات المحيطة. تمايلت جدرانه كلما هبّت رياح كبرى في المنطقة. تروي حكاية استقلاله قصصا عن الكيفية التي ترسمُ فيها الخرائط على أيدي من يخطّونها وفق المصالح الكبرى ومن ينحت تفصيلاتها وفق طباع الفاعلين. كان للبنان حصة في صراع الغرب والشرق. تلاعبت به حقبة "حلف بغداد" والمدّ الناصري، وصعود منظمة التحرير، وظل يميل غربا رغم انجذابه إلى أحلام ذلك الشرق وطموحاته وهذيانه.

يعيدُ العرب ارتكاب الخطيئة التي اقترفوها بحقّ العراق حين غادروه تاركين لإيران وأدواتها حق التمتع الكامل. عرف العرب أن عودتهم اللاحقة كانت متأخرة لا تقوى على مواجهة أمر واقع بات من العسير تقويضه

لا يستطيع لبنان إلا أن يكون جزءا من استقطاب. قيل يوما إنه مدلل فرنسا والغرب. جذبته براكين العروبة والوحدة العربية. وجد الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر نقطة توازن مع الرئيس اللبناني الراحل فؤاد شهاب لعدم المسّ في توازناته، فيما لم تكترث الوصايتان السورية والإيرانية لذلك الترف، فكان أن وصل البلد إلى ما وصل إليه هذه الأيام.

لا يجد لبنان هذه الأيام إلا إيران وصيّا معلنا في غياب وصايات بديلة. لا يبدو أن نظام دمشق يستطيع أن يلعب هذا الدور، وهو بالكاد يشقّ النفس لفرض وصاية على سوريا.

ولا يجد لبنان إلا وصاية طهران المفروضة بقوة القهر والأمن والعسكر، فيما لا تملك أيّ وصايات بديلة هذه "المواهب". وإذا ما كان البلد لا يقوى على مقاومة الأوصياء عليه إلا بتوفر قوة كبرى رادعة، فإن لبنان الذي سقط داخل وصاية دمشق بالرعاية الكاملة للولايات المتحدة والحلفاء، يجد نفسه يسقط منذ سنوات، رويدا رويدا، داخل وصاية طهران، دون أن تلوح ظواهر اعتراض جدية وحقيقية، أو رد فعل صارم، بإمكانه إرباك الفعل الإيراني وأدواته المحلية.

لا يمكن للعالم إلا أن يعترف أن في لبنان من آمن يوما بأن قواه الذاتية تستطيع أن تجلي وصاية ثقيلة وتحرّر البلد من براثن التبعية لأجندات ما وراء الحدود. جرى أن تلك الوصاية دافعت عن نفسها بشراسة وحمت نفوذها بضراوة. يوما حين أجبرت "المارينز" على مغادرة البلد، ومرة حين فتكت بالخصوم اغتيالا، واحدا بعد آخر، منذ مقتل رفيق الحريري، ومرة حين انقلبت على البلد برمته بقوة السلاح في "7 أيار" الشهير. وفي أعقاب كل مواجهة كان واضحا أن العالم الذي يزعم دعمه لـ"السياديين" في لبنان تركهم يذبحون، وذهب لترتيب تسويات (اتفاق الدوحة نموذجا) تمحض قوة القهر بشرعية دستورية يتآلف العالم مع مآلاتها.

اندفع خصوم حزب الله في لبنان إلى الخروج من فقاعة ساذجة أوحت لهم أن العالم يقف معهم. راحوا يغادرون معسكراتهم ويمتهنون ركوب البراغماتية الأقرب إلى الانتهازية. بدا لهم أن وصاية طهران أزلية عزز من صلابتها اتفاق الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما مع إيران، وبدا لهم أيضا أنّ لا تعويل على ما انقلب في مزاج واشنطن ضد نظام الجمهورية الإسلامية في عهد سلفه دونالد ترامب. وفي ذلك ما نفهمه من تسويات متفاوتة اندفع إليها سعد الحريري أو سمير جعجع أو وليد جنبلاط مع أمر الوصاية لاتقاء شرورها. وفي ذلك ما لا نفهمه من تلك القَدَرية التي يتعامل بها العالم، من عواصمه الدولية الكبرى إلى تلك العربية الفاعلة المفترض أنها معنية بشأن هذا البلد.

أن يُترك لبنان لأمر الوصاية السورية في عهد حافظ الأسد وفي عهد ابنه لاحقا، فذلك أن تلك الوصاية كانت تمثل نقطة تقاطع تم الاتفاق عليها بما يراعي مصالح من له مصالح في لبنان. راعى نظام الأسد، حتى خروج القوات السورية من لبنان عام 2005، مصالح إسرائيل بدقة في ما عُرف بالخطوط الجغرافية الحمراء. راعى مصالح الولايات المتحدة رغم ما كان يجاهر به من تحالف مع موسكو. وراعى مصالح السعودية سواء في إنهاء الحرب في مدينة الطائف، أو في ظهور رفيق الحريري وبروز دوره تحت حكم الوصاية.

لكن أن يُترك لبنان من جديد لوصاية إيران ببلادةٍ يحكمُها حرد، فتلك خطيئة في حساب الأرباح والخسائر كما في القراءات البسيطة للمشهد الجيواستراتيجي في المنطقة. وأن يتم التسليم بأن البلد الذي تعاقبه الأزمة الاقتصادية سينقلب على أوصيائه ويهرول للالتحاق بركب "الأشقاء والأصدقاء"، فتلك سذاجة تشبه التسليم بأن عقوبات ترامب وحدها كافية لجرّ إيران صوب طاولة ترامب للمفاوضات.

يعيدُ العرب ارتكاب الخطيئة التي اقترفوها بحقّ العراق حين غادروه تاركين لإيران وأدواتها حق التمتع الكامل. عرف العرب أن عودتهم اللاحقة كانت متأخرة لا تقوى على مواجهة أمر واقع بات من العسير تقويضه. أن يترك العرب لبنان دون مقاربة حيوية تعزز حضورهم في البلد، فذلك يعني أنهم يواكبون الحدث الإيراني ويُفرطون في الاكتفاء بتأمله. وأن يمارسوا ضد لبنان حردا لكونه لا يقوى على الخروج من الزمن الإيراني، فذلك أنهم خذلوه كما خذله العالم حين حاولوا ذلك.

أمام الزمن الإيراني في لبنان استحقاقات تضعه في مواجهة ما ترومه واشنطن. قد تطالب الأخيرة بتفاهمات حول ترسيم حدود لبنان مع إسرائيل، وأخرى تطال قطاع النفط في مياهه ومطالب أخرى. وقد يحصل أن تذهب طهران يوما لإبرام اتفاق جديد مع الولايات المتحدة الترامبية. وإذا ما أتاحت إيران وحزبها في لبنان تلك التفاهمات اللبنانية، أو انسحب على لبنان اتفاق طهران وواشنطن المتوخّى، فذلك يعني أن الوصاية التي تمرر للأميركيين مصالحهم وترسم ابتسامة نصر على وجه رئيسها، ستحظى برعاية أميركية كما تلك التي حظي بها نظام حافظ الأسد، على نحو يجعل العرب فرعا هامشيا داخل زمن لبنان المقبل.

علاوي.. آخر فصل لحكم الميليشيات في العراق

د. ماجد السامرائي
كاتب عراقي

سياسيون غير عراقيين ممن ساعدوا وهيئوا مناخ اختيار محمد توفيق علاوي للحكم نصحوه قبل ركوبه قارب السلطة إن تمكن من ذلك، بسيناريو اعتقدوا أنه متقن بعض صفحاته الأولية تقول له: أطلب من المتظاهرين الاستمرار في احتجاجاتهم، للإيحاء لهم بأنك معهم وستلبي مطالبهم، واترك باقي القصة لنا نحن نتدبرها ليتم تنصيبك على كرسي رئاسة الوزراء، والرجل بطبعه ناعم ومسالم وغير عنيد، وفيّ في دواخله للإسلام السياسي الشيعي ولم يتمكن من الخروج عنه حتى وإن تعاطى بلغة تبدو ليبرالية اكتسبها من معاشرته الطويلة للنظام الغربي .

هذا السبب هو واحد من أسباب أخرى كثيرة منعته من التعرّف على الجذور الحقيقية للأزمة القائمة بين الشعب العراقي والحكم، وقبوله تحدي مغامرة استلام منصب رئاسة الوزراء والدخول وسط لهيب النار في انحياز لرغبات الطبقة السياسية المستعدة لتقديم تنازلات شكلية لا تلغي مصالحها الاستراتيجية وتبعد استحقاقات الثورة عن الواقع السياسي العراقي.

محمد علاوي يحاول التمويه على حقيقة ما أفرزته انتفاضة أكتوبر من واقع جديد ورسمها لخط عميق بين ضفتين. الضفة الأولى ضفة العراقيين المتمسكين بثوابت "نريد وطنا"، مقابل ضفة الطبقة السياسية الحاكمة وأدوات القتل التي تديرها إيران، حيث أحيت هذه الانتفاضة مفهوم المواطنة والهوية العراقية التي اعتقد زعماء العهد الميليشياوي الجديد أنهم مسحوها من العقل الجمعي في العراق.

بعد انقضاء أكثر من أربعة أشهر على ثورة الشباب أصبحت ساحة المنازلة بين المنتفضين في العراق، وبين خصومهم من زعماء الميليشيات المسلحة الموالية لإيران واضحة، وكان من مصلحة الثورة انكشاف ورقة خلط الأوراق التي قادها في هذه الأيام مقتدى الصدر في تصديه للمنتفضين عبر أدواته بقمعهم من قبل أصحاب "القبعات الزرقاء" وتعدّيه في خطاباته "الوعظية"، قبل أن يصبح مرجعاً شيعياً، على الشابات والشباب العراقيات الثائرات مستثمراً ولايته الثورية التي انتهى رصيدها الشعبي بعد انحيازه لطهران التي دغدغت عواطفه الحالمة بأن نصّبته رئيساً لما سمته "المقاومة الإسلامية العالمية".

لم تعد أمام الأحزاب التي أصبحت تحت إمرة الميليشيات الإيرانية وتحكّمها، فرص اللعب بشعارات هزيلة انتهى مفعولها مثل محاربة فلول نظام صدام حسين بعد أن قتلت معظمهم وهرب الآخرون إلى مواطن اللجوء، وقننت ونفذت "المادة 4 إرهاب" لاعتقال وتغييب الشباب الذين لم يذعنوا للميليشيات المسلحة خصوصاً من أبناء الطائفة العربية السنية، ثم جعلت من الحرب على تنظيم داعش وما خلفته من كوارث إنسانية فرصة جديدة لملاحقة المواطنين في المحافظات المنكوبة وتنفيذ مشروع التغيير السكاني الحل الأمني بجميع أشكاله وأدواته لم يقتل إرادة العراقيين رغم كلفته البشرية والمادية التي امتدت على مدى خمسة عشر عاماً، وكانت المفاجأة أمام المتجبّرين الطغاة أن خرجت الثورة من قلب الشارع الشيعي الذي لعبوا على شعاراته، وهذا هو آخر مأزق في عهدهم الذي أصبح قصيرا.

ثورة الشباب في العراق تعيش فصلا متجذرا في حياة الناس ويصعب على ميليشيات ربطت مصيرها بالخارج أن تنتصر. وقد يكون حكمها الحالي بواسطة محمد علاوي آخر فصول حكمها في عهد الفاسدين وأمراء الدجل الديني والعمالة لطهران

المشكلة لدى زعامات الطبقة السياسية الحاكمة أنها لم تستوعب، أو لا تريد إلى حد اللحظة أن تدرك أن ما يحصل اليوم في العراق هو ثورة على منظومة الحكم، وليست مجرد تحرك ضد رئيس وزراء أو ضد وزراء على خلفيات الكفاءة أو حتى الاستقالية بمعناها الدارج، بل إن ما يريده شعب العراق في مقدمة مطالبه هو تنحية وإبعاد فوهات البنادق المدفوعة من إيران عن القرار السياسي العراقي .

الحقائق الجديدة التي أنتجتها ثورة الشباب لم يكتشفها محمد علاوي، أو هو محكوم بالابتعاد عنها وعن متطلباتها الأساسية في إزاحة مافيات الفساد الميليشياوية ومحاكمتهم والاقتصاص من قتلة أبناء الانتفاضة أو الثورة، والدخول المباشر في آليات الانتخابات المبكرة بقانون جديد بعد حل البرلمان، وهذه استحقاقات لا تتحمل التسويف والمماطلة.

مجيء محمد علاوي للحكم وخطابه الناعم لن يلغي فعاليات طرفي المعركة التي خلفت دماء عراقية زكية.

فأمام صمود القطب الثوري الشعبي وإصراره على ثوابته، سيستخدم خصم العراقيين المتحصن بسلاحه الفتاك وأغطيته العقائدية الإيرانية آخر ما تبقى لديه من خيار جنوني بالإجهاز على مخيمات المعتصمين وحرقها وتطويق الشباب، تمهيداً لتفريقهم تحت عنوان مزيّف جديد هو أن محمد علاوي يمثل إرادة المحتجين، وقد يوظف أحدهم في كابينته الوزارية لخلق الفتنة بين صفوفهم، وكذلك مباركة مقتدى الصدر ربما تمكنه قوة اللعب بهذا الخيار الخاسر .

قد تتمكن البندقية المسوكة بيد عصابات الميليشيات المسلحة من التغلّب على المنتفضين المحتجين العزّل، وقد تنجح تلك العصابات في مسح ساحات الاعتصام بالنار والدخان، لكن الثورة لن تنطفئ، وستعود قوية أكثر من أيّ وقت مضى، والخشية أن يؤدي هذا المنعطف الانتحاري إلى لجوء الثوار إلى خيار الثورة المسلحة للدفاع عن أنفسهم، وذلك ما سيكون في مصلحة الميليشياويين بعد خسارتهم جميع الأوراق .

إذا كانت أدبيات الثورات الشعبية لا ينحصر عمرها في أسابيع أو أشهر، فإن عهد ثورة الشباب العراقي قد بدأ، والثورة تعيش فصلاً ناضجا ومتجذرا في حياة الناس ومن الصعب على ميليشيات ربطت مصيرها بالخارج أن تنتصر.

وقد يكون فصل حكمها الحالي بواسطة محمد توفيق علاوي هو آخر فصول حكمها في عهد الفاسدين وأمراء الدجل الديني والعمالة لطهران.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk